قيمة الثقافة

للأستاذ احمد أمين

للثقافة قيمة ماليـــة مقررة . فالليسانس والدكتوراه والدبلوم وما الى ذلك من الأسماء ، هى عنوان للثقافة ، أو بعبارة أخرى تتويج لمجهود سنين قضيت فى تحصيل العلم ، وتأتى « المالية » بعد فتقدر هذه الدرجات بالجنيه والمليم ، وتجعل لكل منها قيمة مالية خاصة ، ولها العذر فى أن تخالف بين الدرجات ، وتسوى بين حاملى الدرجة الواحدة وإن اختلفوا فى مقدار الثقافة ، لأنه لم يخترع الى الآن مقياس دقيق يوزن به الفكر ومقدار استعداده وزناً صحيحاً . ولو اخترع هذا الميزان لألغيت الدرجات ، واكتفى بوزن الكفايات ؛ ولكن من لنا بذلك وقد عجزت المدنية الحديثة عجزاً تاماً عن اختراع هذا الميزان .

وللثقافة كذلك قيمة اجتماعية ، فالثقافة ترفع من كان من طبقة وضيعة ، الى ان يكون أحيانا مساويا لمن كان من طبقة رفيعة ، فحامل الشهادة العليا يرى نفسه ـ وقد يرى الناس معه ـ أنه صالح لأن يتزوج من طبقة راقية ، مهما كان منشؤه ومرباه . وقديماً قال الفقهاء فى « باب الزواج » : إن شرف العلم فوق شرف النسب ـ والمثقف الراقى له الحق أن يكون عضواً فى الأندية الراقية من غير أن يسأل عن نسبه وحسبه ـ بل له أن يُدِلّ على أبناء الطبقة الأرستقراطية إذا نال درجة لم ينالوها ، وعرف من أنواع الثقافة ما لم يعرفوا ، وله من حرمة الناس فى المجتمعات والأندية ما لا يناله غير المثقفين ، وإن كانوا من بيت خير من بيته ، وفى نسب خير من نسبه .

ولكن لا أريد أن أتحدث فى شىء من هذا ولا ذاك ، فليست تعنينى الآن الناحيـة المالية للثقافة ، ولا الناحية الاجتماعية لها ـ وإنما أريد أن أتساءل : ما القيمة الذاتية للثقافة ؟ إن المال واحترام الناس عرض خارجى ، فما القيمة الثابتة التى تتصل بنفس المثقف ولا تفارقها فى فقر أو غنى ، وفى جاه وغير جاه ؟

أهم قيمة ـ فى نظرى ـ لثقافة المثقف هى كيفية نظره الى هذا العالم . ذلك بأن عيون الناس فى نظرها الى الأشياء وحكمها عليها ليست سواء ، فعيونهم الحسية وإن اتفقت فى الحكم على الألوان بالسواد والبياض والحمرة والصفرة ، وإن اتفقت فى الحكم على الأبعاد قرباً وبُعداً ، وإن اتفقت فى الحكم على الأحجام كبراً وصغراً ، فإن العيون النفسية لا تتفق فى نظرها ولا حكمها ، فالشىء فى نظر الأبله غيره فى نظر الفيلسوف ، وبين هذين درجات لا حدّ لها ، وليس للشىء الواحد معنى واحد ، بل معان متعددة تتسلسل فى الرقى ؛ والناس يدركون من معانيـــه بحسب استعدادهم وثقافتهم وأذواقهم .

وقد حكوا أن عيسى عليه السلام مرّ هو وأصحابه بجيفة فقالوا : ما أخبث رائحتها ! وقال هو : ما أحسن ياض أسنانها ! ونظر الرجل العادى الى حديقة مزهرة غير نظر الاديب الفنان ، هذا ينظر اليها فيقرأ فيها من المعانى والجمال ما يمتزج بنفسه ، ثم يسيل على قلمه كأنه قطع الرياض ـ وذاك ينظر اليها نظرة مبهمة ، لا تُسفر عن معنى ، ولا تُعرّف لها وجهة ، نظرة بليدة جامدة ، لا يبعثها ذوق ولا تخدمها قريحة .

ومثل هذا فى كل شىء يعرض على العين ، فكل شىء فى السماء وفى الارض لا يحمل معنى واحدا بل معانى متعددة ، وقيمة الثقافة ان تنقل العين من أنظار سخيفة ومعان وضيعة الى أنظار بعيدة ومعان سامية . فالاديب اذا لم ينظر فى المرأة الا الى حسن جسمها وتناسب أعضائها لم يكن أديبا مثقفا وقلنا له كما قال المتنبى

وما الحيل الا كالصديق قليلة
وان كثرت فى عين من لا يُجرّب

اذا لم تشاهد غير حسن شياتها
وأعضائها فالحسن عنك مغيب

ففرق كبير بين ان تنظر الى المرأة كشيطان وان تنظر اليها كانسان وان تنظر اليها كملك ـ وفرق كبير فى كل شىء فى الوجود يعرض على أنظار الناس

وكل انسان له نظراته فى العالم من اسفل شىء الى أرقى شىء ، من مادة تحيط به ومال يعرض عليه وأعمال تتعاقب أمام نظره والله يعبده ـ هو فى كل ذلك قد يكون سخيفا فى نظراته ، وضيعا فى رأيه ، وضيعا فى حكمه . وقد يبلغ فى ذلك كله من السمو منزلة قل أن تنال . وعمل الثقافة ان تنتشله من تلك النظرات الوضيعة الى هذه النظرات السامية

وليست نظرات الانسان الى الحياة قوالب من طوب ، كل قالب مستقل بنفسه ، محدودة بحدود ، انما هى كسائل لطيف اذا لوثت نقطة منه بلون شع اللون فى سائر السائل ، واذا سخنت جزءا منه وزع حرارته على السائل كله حتى يتعادل ـ بل الرؤى والنظرات ألطف من ذلك وأدق وأرق . فاذا رقى النظر الى شىء أثر ذلك رقيا فى سائر النظرات ، فكل نظرات الحياة متأثرة بنظرك الى نفسك والعكس ، بل نظرك الى الله تعالى متأثر بنظرك الى عالمك المحيط بك ـ وهذا ما يجعل الثقافة فى أية ناحية من النواحى الأدبية والعلمية يؤثر أثرا كبيرا فى النواحى الأخرى حتى ما نظن أن ليست له صلة به . وقد أصاب صديقى يوما اذ كان يقول « ان رقى الامة فى الموسيقى وتذوقها الصوت الجميل والغناء الجميل يجعلها تتعشق الحرية وتأنف الضيم وتأبى المذلة » فمحيط المخ والعقل والشعور محدود ، كل ذرة فيه تتأثر بأقل شىء وتؤثر بما تأثرت ـ والفكرة الجديدة قد تدخل فى الفكر فتقلبه رأسا على عقب وتجعل من صاحبه مخلوقا جديدا يقل وجه الشبه بينه وبين ما كان من قبل ، فتجعله فى أعلى عليين أو أسفل سافلين

ان كان هذا صحيحا ، وكانت قيمة الثقافة الذاتية فى مقدار ما توقفه فى المثقف من وجهة النظر الى الاشياء وتقويمها تبعا

بل . . . صفحة بيضاء !

للأستاذ حسن جلال

كتب الأستاذ الكبير ـ أحمد أمين ـ تحت عنوان « صفحة سوداء » مقالا عن مصر كما يراها بعض مؤرخى العرب . فجمع كثيرا مما قاله القوم فى المصريين وفى طبيعة بلادهم . وكيف أن أرض مصر « تولد الجبن والشرور الدنيئة فى النفس حتى أن الأسد لم تسكنها ـ وهى إذا دخلت أرضها ذلت ولم تتناسل ! وكلابها أقل جرأة من كلاب غيرها من البلدان ، وكذلك سائر ما فيها أضعف من نظيره فى البلدان الأخرى » اه

وقد تفضل الأستاذ فرد على هذه التهم ولا سيما التهمة المسندة إلى كلاب مصر فانه أبدع فى تفنيدها وأشاد بذكر أرمنت وما يستطيع أن يفعله كلابها بجلد المؤرخ الذى فرط منه ذلك القول ونحن نشكره هنا . . بلسان أرمنت وما فيها !

ولكن بقيت بعد ذلك تهمتان نريد أى نقول نحن أيضاً فيهما كلمتين : أما التهمة الأولى فهى الخاصة بأرض مصر وأن الأسد لا تسكنها ، وأنها إذا سكنتها ذلت ولم تتناسل فيها لأنها ترث الجبن من هذه الأرض . وهذا قول عجيب ، فكأن التناسل من أعمال الشجاعة فى نظر ذلك المؤرخ الذى يحيط علمه الواسع ولا شك بما قال الشاعر من أن

« بغاث الطير أكثرها فراخا »

والحقيقة الواقعة أن التناسل لا دخل له بالقوة ولا بالضعف

جديدة اقرب الى الصحة ، أسلمنا ذلك الى نتائج خطيرة ـ فدين خير من دين بمقدار ما نحاول تعاليمه من رفع مستوى النظر الى الله تعالى والى الحياة ـ وعلم خير من علم باعتبار ما يؤدى اليه من نظر راق صحيح ـ وثقافة الانسان لا تقدر بمقدار ما قرأ من الكتب وما تعلم من العلوم والآداب ولكن بمقدار ما أفاده العلم ، وبمقدار علو المستوى الذى يشرف منه على العالم ، وبمقدار ما أوحت اليه الفنون من سمو فى الشعور وتذوق للجمال .

أحمد أمين